وقعة الجلالية

تكرار الجريمة القرمطية في الحرم المكي على الطريقة العثمانية

بربط كثير من المؤرخين بين حادثة اســتباحة العثمانيين لمكة المكرمة سنة 1041هـ (1631م) وبين حادثة استباحة القرامطة لها عام 317هـ (929م)، فالجريمة واحدة وإن اختلف المُنفذ.

يقــول ابن كثير في تعليقه على حادثة القرامطة وقائدهم أبي طاهر القرمطي: "وقد ألحَدَ هذا اللعين في المســجد الحرام إلحادًا لم يســبِقه إليه أحد، ولا يلحقه فيه، وسـيُجازيه على ذلك الذي لا يعذِّب عذابَه أحد، ولا يُوثِق وثاقَه أحد".

وذكــر ابن كثير روايةً عمن حضروا هذا اليوم تُظهِر جهل وفُجر القرامطة، حيث قال: "كنت في المســجد الحرام يوم التروية في مكان الطواف، فحمل علــى رجل كان إلى جانبي فقتله القرمطي، ثم قال: يا حمير -ورفع صوته بذلك- أليس قُلتم في بيتكم هذا: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}؟ فأين الأمن؟".

وفي المقابل يَصِف الشــيخ محمد بن عَلّان الصديقي الشافعي حوادث اعتداء عسكر الترك العثمانيين على الحرم والكعبة المشــرفة شيئًا مشــابهًا فيقول: "إن بعض العسكر -الترك- سَكِر، فدخل الحرم، وضرب الحجر الأســود بســيفه، وضرب البيت الشــريف، فأريد تأديبــه، فتعصب له جماعته ومنعوه".

قائصوه وجنوده:

أُعطِي الأمير التركي قائصوه ولاية اليمن، فتجهَّز في عســكر جرَّار زهاء عشرة آلاف، وسافر هو والفرســان بَرًّا، والباقون بحرًا، فوصل مكة في صفر من سنة 41، هـ (1631م)، وكان قد أُمِر أن ينظر في أمــر مكة، ويُولي فيها مَن يختاره، فلما وصل إلى مكة اجتمع بواليها، ولم يكن قائصوه إلا قادِمًا لعزله، عندهــا أحسَّ الوالي بالخديعة، وهَمَّ بقتال قائصوه، لكن قائصوه اســتمال عســكر والي مكة، وتقول الرواية التاريخية أن قائصوه استطاع خداع الوالي ومَن معه حتى قبَض على الجميع، وأمر بخنق الوالي أحمد بن عبدالمطلب، ثم أخرجه لعساكره عاريًا؛ إمعانًا في الإهانة.

> **30 ألفًا من الترك العثمانيين فعلوا بمكة الجرائم، وانتهكوا الحُرُمات**

ولم يكن احتلال قائصــوه ومن معه من العثمانيين لمكة إلا وبــالًا عليها، فما إن انتهت فتنتــه الأولى بقتــل الوالي حتــى اقتحم جنود قائصوه مكة المكرمة، وهذا دليل آخر على فشل الإدارة العثمانية في الحرمين الشــريفين اللَّذَين احتلَّتهما بعد هزيمــة المماليك، وانفلات الأمن فيهمــا، وتفلُّــت جنودها، وعدم الســيطرة على تصرفاتهــم وأفعالهــم المجرمة، ولقد ســعَّى مؤرخــو مكة اســتباحة جنــود العثمانيين لمكة المكرمة "وقعة الجلالية"؛ نسبة إلى رئيس قُطَّاع الطُّرق هؤلاء.

تقول الرواية التاريخية: "في العشر الأول من شــهر شــعبان ســنة إحدى وأربعين وألف هجرية، الموافق لســنة ثلاث وثلاثين وســتمائة وألف ميلادي وصلــت أخبار من جانب اليمن بأن عســكرًا من الأتــراك خرجــوا عن طاعــة الوزير قائصوه باشا، وهم جماعة من الأشقياء، أجمَعوا الــرأي بأن يخرجــوا لمكة للبغــي والفجور، فلم يزالوا في الجبــال مقيمين بالنهــار، ويقطعون الليل بالأسفار حتى وصلوا إلى مكة".

وصل هؤلاء العســاكر من جهــة اليمن بعدد يُقدَّر بأكثر من ثلاثيــن ألفًا، وهم نفس الذين دخل بهم قائصوه باشــا إلى مكة المشرفة عند وصوله من السلطنة العثمانية في طريقه إلى جهة اليمن لإزاحة واليها، ومن ثم الاســتيلاء على اليمن، ولمــا وصل قائصوه لمكة صادر أعيانها، وقتل بعض أشــرافها، ثم توجَّه إلى اليمن، وكان كلما دخل قرية نهب أهلها وظلمهم.

اضطراب الأوضاع في مكة المكرمة:

لما بلغ أهالي مكــة قدوم المرتزقة من جنود العثمانيين دخلهم الخوف مما ســمعوا من جرائم ارتكبوها في حق الأهالي والنســاء، فاســتعدَّ الأهالــي مع واليهم، وخرجــوا للقاء المرتزقة العثمانيين قبــل دخولهم مكة، ووقع اللقاء بالقرب من وادي البيــار، فحصلت معركة كبرى، لكن أهالي مكة مع واليهم انهزموا.

ويروي المؤرخ إبراهيم بن منصور الهاشــمي عن حادثة اســتباحة مكة وقتل أهلها المعروفة بوقعة الجلالية فيقول: "ما أن دخل الجنود الأتراك العثمانيون مكة إلا وجاهَروا بالطغيان، وبالَغوا في قتل المسلمين، وارتكبوا الفجور بالنســاء، وقتلوا الحجاج والمجاورين والعلماء، وأخرَجوا الأعيان من بيوتهم، واســتولوا على أموالهم ومواليهــم وحريمهم وعيالهم، لقد كانت جريمــة كبرى ندر مثيلها، وتباهَوا بالزنا وشــرب الخمور، بل كانوا يتفاخرون بقتل الأنفس والبغي والفجور، فتعجب الناس أشــد التعجب، وحصل الخوف الشــديد، وتســلَّطَت عســاكر الترك على الناس، وأتعبوهم وأهلكوهم قسطًا، ونهبًا، وظلمًا، وشُربًا، وتقطعت الطرق، وصار منهم فساد عظيم، وشناعة ومصائب وأهوال في أهالي مكة المشــرفة، وفسقوا بكل صبي وحُرَّة، وتعطَّلت شعائر حرم الله الرحمن، وانتُهِك حرم الله، واختلّ الدين بالمسجد الحرام، ولم يراعوا حُرمة البيت والمقام".

المراجع:

1) أحمد الســباعي، تاريخ مكة.. دراســات في السياســة والعلم والاجتماع والعمران في العهد العثماني، كتاب منشور على شبكة الإنترنت على الرابط: http://surl.li/kjrhz.

2) علي الســنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، دراسة وتحقيق: ماجدة فيصل زكريا (مكة المكرمة: مركز إحياء التراث الإســلامي، جامعة أم القرى، 1998).

3) منصــور اليهوتي، إعلام الأعــلام بقتال من انتهك حُرمــة البيت الحرام، تحقيق: جاسم الدوسري (بيروت: دار البشائر، 1988).

4) منصور اليهوتي، رســائل علماء الإسلام في قتال من استباح مكة وقتل الأنام، تحقيق: إبراهيم الهاشمي (بيروت: دار البشائر، 2015).